

# ال فشل العلمي الأمريكي في العراق وفشل استراتيجيات «تحويل» الصراع

أحمد جميل عزم<sup>(\*)</sup>

باحث في نظريات إدارة الصراع، مقيم في الإمارات.

## مقدمة

يمكن النظر إلى الحرب الأمريكية في العراق منذ عام ٢٠٠٣ باعتبارها سلسلة من الأخطاء في فهم الطبيعة الاجتماعية والثقافية لميدان المعركة، أو ما يمكن تسميته «فشلاً علمياً» تمثل في عدم قدرة المخططين الأمريكيين على الاستفادة من عدد من الميادين والتخصصات العلمية الأساسية التي كان يمكن أن تقدم لهم صورة أفضل بكثير عما سيقابلهم في العراق، وبعض هذه التخصصات تطور أصلاً في الغرب في سياق عمليات التخطيط للحروب الاستعمارية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

تتناول هذه الدراسة قصور المخططين الأمريكيين عن الاستفادة من تخصصين علميين، هما «دراسات القومية والإثنية» (Nationalism and Ethnicity)، وتخصص الدراسات الشرق الأوسطية. والتخصصان وإن كانا من التخصصات التي تعتبر ذات مناهج موزعة بين عدد من العلوم (Interdisciplinary) ويتم استخدام مناهج علمية متعددة في إطارها، مثل مناهج ونظريات علم الاجتماع والسياسة والأنثروبولوجيا وغيرها، فإنهما يُعتبران في كثير من الجامعات الأمريكية والأوروبية تخصصين أكاديميين ضمن إدارات مستقلة ولهما مناهجهما وأجندتهما البحثية الخاصة. وكان تطبيق المبادئ الأساسية لهذين التخصصين، وأخذها بالاعتبار في أثناء التفكير في الحرب، كفيلا بلفت الأنظار إلى خصوصية التركيبة الطائفية، والقبائلية، والقومية، والسياسية في العراق، وما يتطلبه ذلك من معالجة خاصة، ونتيجة لهذا الفشل العلمي، تم تقليص الهدف الأمريكي في العراق.

في هذا البحث سأقوم بمهمتين رئيسيتين، أولهما، صوغ وتحليل أهداف الحرب الأمريكية، مستخدماً مصطلحات ونظريات علم «إدارة الصراع»، وكثير من هذه المصطلحات، للأسف، لم يتم تقديمها بعدُ باللغة العربية<sup>(١)</sup>، والمهمة الثانية، هي توضيح

aj.azem@gmail.com.

(\*) البريد الإلكتروني:

(١) قام الباحث بالعديد من المحاولات للعثور على أدبيات ودراسات علمية باللغة العربية، تستخدم مناهج =

الفشل في تطبيق نظريات علمية أساسية لفهم الواقع العراقي الاجتماعي – السياسي.

## أولاً: الأهداف الأمريكية في العراق من منظور نظريات «حل الصراع»

يمكن القول إن مصطلح «تحويل الصراع» (Conflict Transformation)، هو المصطلح الأدق لفهم الأهداف المعلنة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية للحرب على العراق. وهذا المصطلح حديث نسبياً، برز ضمن الكتابات والأبحاث الخاصة بعلم «حل الصراعات» (Conflict Resolution)، في نهاية التسعينيات من القرن الماضي، فحتى ذلك الوقت كان المصطلحان الأشهر في الأطر النظرية لدراسات الصراعات، هما: إدارة الصراع (Conflict Management) وحل الصراعات.

والتعريف التقليدي لمصطلح، (إدارة الصراع)، يركز على مسألة احتواء الصراع ووقف المظاهر العنيفة فيه دون أن يعني بالضرورة حل الصراع. والمنظرون الذين يعتمدون فكرة إدارة الصراع يرون الصراعات العنيفة بأنها «تبعات»، لا يمكن التخلص منها، لخلافات في القيم والمصالح داخل وما بين المجتمعات المختلفة<sup>(٢)</sup>، وهؤلاء المنظرون يرون أن السعي إلى «حل مثل تلك الصراعات أمر غير واقعي، وأفضل ما يمكن فعله هو إدارة (Manage) هذه الصراعات واحتواؤها، ووقف مظاهرها العنيفة...»<sup>(٣)</sup>. أي أنّ الخلافات تبقى قائمة لكن التعبير عنها يتم بوسائل أقل تدميراً.

لكن هناك فريقاً من الباحثين رفض مشاركة منظري «إدارة الصراع» بتشاورهم، بأنّ الصراعات يستحيل حلها وإزالتها كلياً، ويعتبرون إدارة الصراع (احتواءه) مرحلة أولى تليها مراحل أخرى، هي حل أو إزالة الصراع (Conflict Termination)، ومثل هذا التقسيم يستند إلى أن إدارة الصراع تعني، في أحسن الأحوال، علاج تبعات الخلافات بين الخصوم، بينما إزالة الصراع تعني إزالة هذه الخلافات وطمسها<sup>(٤)</sup>.

ازداد مع انتهاء الحرب الباردة الاهتمام بدراسة الصراعات، خاصة مع بروز أنواع جديدة من الصراعات، وانبعثت أنواع قديمة؛ ففي أثناء الحرب الباردة كانت نظريات

= وأدبيات «إدارة الصراع»، وكانت النتائج محدودة للغاية، وللباحث دراسة نقدية منشورة باللغة الإنكليزية، حول تطور مفاهيم «إدارة الصراع»، في السياق الغربي، انظر: Ahmad Azem Hamad, «The Reconceptualisation of Conflict Management», *Peace, Conflict and Development: An Interdisciplinary Journal*, vol. 7 (July 2005).

Hugh Miall, «Conflict Transformation: A Multi-Dimensional Task», Berghof Research Center for Constructive Conflict Management (August 2004), < [http://www.berghof-handbook.net/uploads/download/miall\\_handbook.pdf](http://www.berghof-handbook.net/uploads/download/miall_handbook.pdf) > .

(٢) المصدر نفسه.

John McGarry and Brendan O'Leary, eds., *The Politics of Ethnic Conflict Regulation: Case Studies of Protracted Ethnic Conflicts* (London; New York: Routledge, 1993), p. 4.

العلاقات الدولية، القائمة على تحليل الاستقطاب في الساحة الدولية، والثنائية القطبية، تبدو نموذجاً مفضلاً لفهم الصراعات، ولكن مرحلة ما بعد الحرب الباردة شهدت انبعاث الصراعات الإثنية والقومية والطائفية والقبلية، في مناطق مثل البلقان وشرق أوروبا وأفريقيا، وهو ما شجع على تنشيط دوائر دراسات الصراع في الكثير من الجامعات العالمية. وتم في هذا السياق اقتراح مصطلحات جديدة لدراسة وحل الصراعات، ومن هذه المصطلحات/النظريات الجديدة، جاء مصطلح «تحويل الصراع»، الذي يمكن تعريفه بأنه مصطلح يشير إلى «التعامل مع المصادر الاجتماعية والسياسية المتنوعة للصراع، والعمل على تحويل الطاقة السلبية الخاصة بالحرب إلى تغيير إيجابي في المجالات الاجتماعية والسياسية»<sup>(٥)</sup>، أي اعتبار أن إحداث تغييرات اجتماعية وفكرية وعقائدية وتغيير خرائط المصالح، وكيفية النظر إلى قضايا الصراع، هي جزء من سبل حل الصراع<sup>(٦)</sup>.

وهكذا يركّز المصطلح على أهمية وعوامل تغيير السياق العام الذي يجري فيه الصراع. فالنظرية تفترض أن الصراع ظاهرة ديناميكية (متغيرة) مما يجعل حل الصراعات يتطلب «سلسلة من التحولات الضرورية في عوامل يؤدي عدم تغييرها إلى استمرار العنف والحرب»<sup>(٧)</sup>. وتفترض النظرية إجراء «تغيير في القيادة، إمّا بتغيير أشخاص القيادات، وإما بجعل تلك القيادات تتبنى أهدافاً وقيماً ومعتقدات جديدة»<sup>(٨)</sup>. وبكلمات أخرى، تفترض النظرية إعادة تعريف أطراف وقضايا الصراع من خلال تغييرات ثقافية وسياسية واقتصادية تؤدي إلى تغيير طرق التفكير، وبالتالي تغيير الأهداف العامة لأطراف الصراع.

بتطبيق هذا الإطار النظري على حرب الولايات المتحدة في العراق، يمكن القول إنّ واشنطن لم تكن تسعى إلى حملة عسكرية محدودة في العراق، بل كانت أهدافها تتضمن «تحويل الصراع»، وتهدف إلى إحداث تحول حقيقي في هوية وبناء المجتمع العراقي سياسياً واجتماعياً وثقافياً، حيث تم دوماً الربط بين الحرب الأمريكية والحرية والديمقراطية، وكان أحد الأسماء الشائعة للحملة الأمريكية هو «حملة حرية العراق»، التي من أهدافها الوصول إلى «دولة عراقية ديمقراطية»، أو كما قال الرئيس الأمريكي جورج بوش، في محاضرة في «معهد المشروع الأمريكي»، في ٢٦ شباط/فبراير ٢٠٠٣، فإنّ «النظام العراقي الراهن يجسد قوة الاستبداد لنشر الشقاق والعنف في الشرق الأوسط. وعراق محرر يمكن أن يجسد قوة الحرية لتحويل الإقليم، من خلال جلب الأمل والتقدم لحياة الملايين.

Simon Fisher [et al.], *Working with Conflict: Skills and Strategies for Action*, 2<sup>nd</sup> ed. (New York: Zed (٥) Books, 2003), p. 7.

Miall, «Conflict Transformation: A Multi-Dimensional Task». (٦)

Hugh Miall, Oliver Ramsbotham and Tom Woodhouse, *Contemporary Conflict Resolution: The (٧) Prevention of Deadly Conflicts* (Cambridge, UK: Polity Press, 2001), p. 156.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٥٧.

ومصلحة أمريكا في الأمن، وفي إيمان أمريكا بالحرية، وكلاهما يقود في الاتجاه ذاته: إلى عراق حر ومسالمة»<sup>(٩)</sup>.

وربما تكون ملاسبات وأسباب اتخاذ القرار الأمريكي شن الحرب في العراق، والأبعاد السياسية والاقتصادية موضع تساؤلات وبحث من كثير من الأطراف، حيث اكتنف التمهيد للحرب الكثير من نقاط الغموض، والتوظيف السياسي لكثير من الأحداث، وسط إصرار كثير من المسؤولين الأمريكيين على الحرب في العراق، وقيامهم بتبرير ذلك بمبررات يثبت يومياً أنها لم تكن حقيقية وربما تم التلاعب بها عن عمد؛ مثل قضايا دعم الإرهاب الدولي وأسلحة الدمار الشامل<sup>(١٠)</sup>. وبغض النظر عن حقيقة الأهداف، وهو موضوع خارج نطاق موضوع هذا البحث، فإنّ موضوع التغيير الثقافي والاجتماعي في العراق، كان بلا شك هدفاً من أهداف الحرب.

هذا الهدف الكبير «المزعوم»، لم يصمد كثيراً، وتم التنازل الأمريكي عنه إلى حد كبير، والسبب في ذلك هو الفشل في إدارة الحرب في العراق، فرغم هذه الأهداف المعلنة ذات البعد الثقافي الفكري، فإنّ التخطيط للحرب الأمريكية لم يتضمن على ما يبدو فهم طبيعة التركيبة الاجتماعية العراقية، كما ستوضح الصفحات اللاحقة.

## ثانياً: الفشل الأمريكي العلمي في العراق

تتضمن السطور التالية توضيحاً لكيفية الفشل في فهم تركيبة المجتمع العراقي، وكيف انعكس ذلك فشلاً في إدارة الحرب، وتحديداً الفشل في فهم التركيبة الإثنية – الطائفية – القبلية للعراق.

### ١ - دراسات الإثنية والطائفية

عندما بدأ الإعداد لحرب العراق (في العامين ٢٠٠٢ و ٢٠٠٣) كان قد صدر بالفعل العديد من الدراسات، وأصبح هناك خبراء بارزون، على المستوى العالمي في مجال الصراعات الإثنية. فالصراعات التي تفجرت في مرحلة ما بعد الحرب الباردة منذ مطلع تسعينيات

(٩) White House, «President Discusses the Future of Iraq.» 26 February 2003, < http://www.whitehouse.gov/news/releases/2003/02/20030226-11.html > .

(١٠) هناك الكثير من المصادر والدراسات التي تبحث وتفند مبررات مسؤولين أمريكيين كبار للحرب في العراق، وتكشف تعجلهم لشن الحرب لأسباب تبدو للكثيرين غير مبررة، أو على الأقل وفق أهداف معلنة تخفي أهدافاً أخرى، ومن أشهر وأهم هذه المصادر، كتاب ريتشارد كلارك ضد كل الأعداء، وكلاارك هو منسق شؤون حماية أمن البنية التحتية ومكافحة الإرهاب، في الولايات المتحدة، بين عامي ١٩٩٨-٢٠٠٣ ضمن إدارتي الرئيسين الأمريكيين، بيل كلينتون وجورج بوش، ويكشف فيه حرص مسؤولي إدارة بوش، وتحديدًا نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد، على مهاجمة العراق، وعلى توظيف أحداث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، وعمليات تنظيم «القاعدة» عموماً، لتبرير الحرب على العراق، انظر: Richard A. Clarke, *Against All Enemies: Inside America's War on Terror* (New York: Free Press, 2004), pp. 227- 287.

القرن الماضي، خصوصاً في البلقان والاتحاد السوفياتي، كانت قد جعلت أثر الحروب وتفكك الدول في الوضع والسلوك السياسيين للأقليات والجماعات الإثنية المختلفة، أمراً حاضراً في ذهن الباحثين والساسة على السواء. وكان قد أصبح من شبه المتفق عليه بين جماعات كثيرة، آنذاك أن أفكاراً من نوع فكرة عالم العلاقات الدولية الأمريكي فرانسيس فوكوياما (نهاية التاريخ)، هي فكرة غير دقيقة، فهذه الفكرة التي تقوم على أساس أن العالم يتجه، أو مرشح لتقبل النموذج الليبرالي الغربي في الحكم، الذي يقوم على احترام المواطنة في سياق الدولة الديمقراطية، بدت فكرة مبالغة في التفاؤل، بالنظر إلى ما حدث من صراعات طائفية وعرقية في البلقان. وفي الواقع إن أفكاراً أخرى بدت عند نشرها متشائمة، من مثل فكرة صموئيل هنتنغتون صدام الحضارات، القائمة على حدوث صدام بين الثقافات والحضارات الرئيسية في العالم، أصبحت تبدو متفائلة، إذ كان قد أصبح واضحاً مع نهاية التسعينيات أن الوضع في كثير من أنحاء العالم أقرب إلى ما وصفه وصاغه بعد ذلك بعدة أعوام، جيرى مولر، في مقال في دورية فورين أفيرز، مستخدماً عبارة «صدام الناس» (Clash of Peoples)، حيث يقول إن العصبية الإثنية عندما تتحكم في مجتمع، فإن تقسيم المجتمع قد يكون هو أقل الحلول ضرراً<sup>(١١)</sup>. بمعنى أن الصراع لم يحدث على مستوى الثقافات والحضارات كما توقع هنتنغتون، بل داخل الحضارات والثقافات والبلدان ذاتها.

أحد الأمثلة على الكتب والدراسات التي صدرت في سنوات ما قبل حرب العراق، هو كتاب ماري كلدور، سياسة الحرب الجديدة، عام ١٩٩٩، الذي تحلل فيه دور النخب في بعث الانقسامات الإثنية، وقد استخدمت آنذاك مصطلح «سياسة الهوية» (Identity Politics)، لتعني به «حركة (اجتماعية) تتمحور حول الهوية الإثنية، أو العرقية، أو الدينية، وهي هوية تستخدم لادعاء الحق بالسيطرة على السلطة في دولة ما»<sup>(١٢)</sup>. وهذه السياسة يطبقها عادة مجموعة من أفراد النخبة لمصلحتهم الخاصة.

لقد بنت كلدور تحليلها على الخبرات المتراكمة من صراعات منطقة البلقان بداية التسعينيات، مع تركيز على دور النخب في بناء حركات قومية جديدة، وذلك خدمة لطموحات وأغراض خاصة لديها. ودراسة كلدور مجرد مثال على الدراسات التي تناولت حالة الصراعات الإثنية التي نشبت في العالم في السنوات التي سبقت حرب العراق عام ٢٠٠٣. وفي حالة البلقان تحديداً، لا بد من تذكر أن السياسيين والعسكريين الأمريكيين كانوا على تماس مباشر مع الصراعات هناك، وكان من المفترض أن تساعد خبرتهم في تلك المنطقة بتوقع ما قد يحصل في العراق، خاصة أن حلفاء واشنطن بين العراقيين، كانوا ينتمون بالفعل إلى مجموعات عرقية وطائفية وقومية متباينة، ويتبنون أجندات قائمة على الهويات الفرعية لمجموعاتهم.

في واقع الأمر إن التركيبة الاجتماعية العراقية لم تكن غائبة تماماً في أوساط الخبراء

Jerry Z. Muller, «Us and Them: The Enduring Power of Ethnic Nationalism,» *Foreign Affairs*, (١١) vol. 87, no. 2 (March-April 2008).

Mary Kaldor, «The Politics of New War,» in: Mary Kaldor, *New and Old Wars: Organized Violence in a Global Era* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1999), p. 76.

الأمريكيين، وكان هناك على مستوى الأكاديميين والباحثين الأمريكيين من أشار إلى خطورة هذه التركيبة، وتداعياتها المحتملة. فعلى سبيل المثال لا الحصر، أشار أندريس ويمر، في ورقة بحثية قدمها في مركز «حول الديمقراطية والتنمية وحكم القانون»، في جامعة ستانفورد، في مطلع آذار/مارس ٢٠٠٣، إلى أنه «لسوء الحظ، فإن العراق تتوفر فيه كل الشروط لحدوث تسييس صراعي (للتريكة الإثنية)، وانقسام على أساس الإثنيات»<sup>(١٣)</sup>. وأوضح ويمر في بحثه كيف أن تبني أهداف من نوع نشر الديمقراطية وفق سبل ووسائل بعينها، يمكن أن يؤدي في ظروف معيَّنة إلى «إشعال الصراعات الإثنية، بدل تسكينها»، وكيف أن العراق تتوفر فيه ظروف من هذا النوع<sup>(١٤)</sup>، في إشارة واضحة إلى أن أهداف نشر الديمقراطية بواسطة تدخل عسكري خارجي، قد يؤدي إلى نتائج وخيمة، في ظل التركيبة السياسية الاجتماعية العراقية.

وبالنظر إلى التركيبة الديموغرافية، للعراق، كما ينشرها الكتاب السنوي فاكت بوك، الصادر عن وكالة الاستخبارات الأمريكية، فإن العراق (كما جاء في كتاب عام ٢٠٠٨ المنشور على الإنترنت) مقسم إثنيًا إلى: ٧٥ بالمئة عرباً، و ١٥ - ٢٠ بالمئة أكراداً، و ٥ بالمئة تركماناً وأشوريين، ومقسم دينياً إلى ٩٧ بالمئة مسلمين (منهم ٦٠ - ٦٥ بالمئة شيعة، و ٣٢ - ٣٧ بالمئة سنّة)، و ٣ بالمئة مسيحيين.

والمعروف أن الجماعات المتحالفة مع واشنطن كانت منقسمة طائفيًا وإثنيًا بشكل واضح، فالأكراد يخوضون صراعاً للاحتجاج استناداً إلى إيمانهم بأنهم يشكلون شعباً متميزاً بذاته، له ثقافته، ولغته، وتاريخه الخاص، ولأنهم يقطنون على الأغلب في منطقة متواصلة جغرافياً، قامت القوى الاستعمارية الأوروبية عقب الحرب العالمية الأولى بتقسيمهم - دون وجه حق، برأيهم - بين عدة دول، وتحديدًا بين تركيا والعراق وإيران. وللحزبين الكرديين الرئيسيين، حزب الاتحاد الوطني لكرديستان، والحزب الديمقراطي الكردي، جناحاهما العسكريان. وهناك قضايا خلافية تؤدي إلى كثير من التوتر بين الأكراد من جهة، وكل من العرب والتركمان من جهة أخرى، خصوصاً الخلاف حول هويّة مدينة كركوك، إحدى أغنى مدن العالم بالنفط.

كما إن للأحزاب الشيعية العراقية أجنحتها المسلحة، وجزء رئيسي منها متصل بالجمهورية الإسلامية الإيرانية أيديولوجياً وسياسياً ومادياً، وهي أحزاب مقصورة على أبناء الطائفة الشيعية، وبالتالي تتبنى أجندة طائفية.

مضت حقائق التركيبة الاجتماعية والطائفية العراقية دون ملاحظتها من قبل مخططي الحرب الأمريكيين، أو ربما تم الإصرار على تجاهلها، وبالتالي تم تجاهل التداعيات المحتملة لتغيير النظام القائم، وعلى مستويين أساسيين:

(١٣) Andreas Wimmer, «Democracy and Ethno-Religious Conflict in Iraq», paper presented at: Center on Democracy: Development and the Rule of Law, Stanford University, May 2003.

(١٤) المصدر نفسه.

**داخل العراق**، حيث هناك احتمالات استغلال ظروف الحرب، لانتقام مجموعات من أخرى، أو لتحقيق مكاسب في إطار منافسة، بين هذه المجموعات، واحتمالات استغلال قيادات سياسية داخل الطوائف والمجموعات المختلفة للوضع للقيام بعملية حشد وتعبئة على أسس طائفية وقومية بما يخدم مصالح هذه القيادات الخاصة. وكانت احتمالات استغلال الشيعة والأكراد هذه المرحلة للانتقام مما رأوا، أو يريدون أن يبذروا، أنه ظلم واضطهاد سني خلال مرحلة حكم صدام حسين أمراً متوقفاً، تماماً كما إن خلخلة التوازنات قد تدفع السنة إلى التمرد على واقع جديد قد يؤدي إلى تحولهم إلى مواطنين من الدرجة الثانية، ويعطي أولوية ومكاسب لأبناء الطوائف والمجموعات الأخرى، ويحرم البعض مكاسب تمتع بها إبان فترة حكم النظام السابق، وكل هذا قد يؤدي إلى أنواع مختلفة من العنف باتجاهات متعددة، سواء بين مكونات الشعب العراقي ذاته، أو ضد قوى الاحتلال الأجنبي.

**النطاق الإقليمي**، المستوى الثاني الذي كان يجب أن يثير قلقاً خاصاً لدى مخططي الحرب، يتعلق بظاهرة معروفة ومصاحبة لاختلال الأنظمة في بلدان ذات تركيبة إثنية متعددة، وهي ظاهرة انتشار الصراعات عبر الحدود، وانتقال الاضطراب إلى دول الجوار الجغرافي. وقد تم نشر دراسات عدة في السنوات السابقة لحرب العراق، حول كيف يصبح الصراع الإثني أو حتى اختلال الموازين الإثنية في دولة ما، أمراً معدياً في دول أخرى. وتم أيضاً نشر دراسات تتعلق بالبلقان وجمهورية الاتحاد السوفياتي وأفريقيا، ومن ذلك كتاب وضعه ١٣ باحثاً من جامعات أمريكية بارزة بعنوان **الانتشار الدولي للصراع الإثني**. ويتضح بجلاء من هذا الكتاب الاحتمالات العالية لأن يؤدي اختلال العلاقات الإثنية في دولة ما إلى اختلال في الدول المجاورة لأسباب كثيرة، منها أن النجاحات والتغيير في موازين القوى الإثنية قد يؤديان إلى حفز جماعات في دول مجاورة لمحاولة القيام بالشيء ذاته، وهو ما قد يقنع نخبة معينة وأشخاصاً بأنهم إن بدأوا اضطرابات وحركات عنيفة، سيحققون مكاسب سريعة، دون دفع ثمن باهظ. ومنها أن دولاً مجاورة أو كبرى قد ترى في الوضع الناشئ فرصة للتدخل في شؤون تلك الدولة وتحقيق مكاسب معينة. هذا فضلاً عن أن احتمالات ظهور حركة لاجئين داخل الدولة أو منها إلى دول أخرى، واحتمال انتقال مسلحين من الدولة لما حولها والعكس، كلها، بين أمور أخرى تؤدي إلى انتشار الاختلال الإثني في دولة إلى دول مجاورة<sup>(١٥)</sup> ومع وجود الطوائف الشيعية في بلدان عربية محيطة، مثل العربية السعودية والبحرين والكويت ولبنان، وبوجود العامل الإيراني، حيث توجد دولة تشكل الطائفية جزءاً رئيسياً من نظام الحكم فيها، وحيث يوجد توثب لنشر فكرة الثورة الإيرانية دولياً، فإن توقع أن تؤدي التغييرات في العراق إلى تنشيط التحركات بين هذه الطوائف، بهدف الحصول على مكاسب معينة، أمر يمكن التنبؤ به، والتنبؤ بتداعياته السياسية في هذه الدول التي يوجد فيها أنظمة حليفة لواشنطن. والأمر ذاته يمكن التنبؤ

David A. Lake and Donald S. Rothchild, eds., *The International Spread of Ethnic Conflict: Fear, Diffusion and Escalation* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1998), p. 8.

به بالنسبة إلى الأكراد، الذين قد تحفزهم مكاسب أكراد العراق، لنهج نهجهم السياسي والعسكري في بلدان مثل تركيا وإيران وسورية.

وإذا كان هناك خبراء وباحثون أمريكيون وغربيون أدركوا مبكراً تبعات التركيبة الإثنية العراقية في سياق حرب لتغيير النظام، فإنّ باحثين ومنظرين آخرين، وخصوصاً أولئك القريبين من دوائر صنع القرار الأمريكي، كانوا على ما يبدو يفتقرون إلى المعرفة بتلك التركيبة، أو أنّهم انطلقوا من تفكير رغائبي محدد، ضمن استعجال لتبرير الحرب في العراق. ويوضح فرانسيس فوكوياما جزءاً من أسباب التخبیط الأمريكي في إدارة شؤون العراق، وإدارة مسألة «نشر الديمقراطية»، وتفاؤلهم المبالغ فيه، بقوله إنّ مجموعة «المحافظين الجدد» التي سيطرت على عملية صنع القرار الأمريكي إبّان فترة الغزو الأمريكي، وصاغت مخططاتها بدعاوى أهمية نشر الديمقراطية في العالم لتأمين المصالح الأمريكية، لم تعترف بصعوبة نشر الديمقراطية إلّا بعد حرب العراق، بينما كانت قناعتهم في أثناء التخطيط أنّ الأمريكيين سيستقبلون استقبال المحررين، وسيتمكنون من خفض القوات الأجنبية في العراق إلى ٦٠ ألف جندي بعد ٦ أشهر من الحرب<sup>(١٦)</sup>. ويوضح فوكوياما أيضاً أنّه لا يوجد لدى «المحافظين الجدد» مشاركات كبيرة في الجدل والدراسات حول كيفية بناء المؤسسات الديمقراطية والتنمية وبناء الدول، وهي دراسات برزت في التسعينيات بشكل خاص<sup>(١٧)</sup>. وبالتالي، فإنّ متطلبات بناء الدول وإجراء التحول فيها كانت غائبة عن أذهانهم.

وتكشف دراسات وكتابات وتصريحات تتعلق بالشرق الأوسط والعالم الإسلامي من قبل أشخاص في الإدارة الأمريكية نزعة جليّة لتبسيط ما يمكن تسميته المهمة الثقافية المنشودة من قبل الولايات المتحدة في العالم الإسلامي. وأحد الأمثلة على باحثين قريبين من دوائر صنع القرار الأمريكي، إبّان حكم إدارة الرئيس جورج بوش (٢٠٠١ - ٢٠٠٩)، هو حالة الباحثة شيرل بنارد<sup>(١٨)</sup>، التي وضعت كتاباً حظي باهتمام بالغ في الدوائر البحثية والإعلامية، وكان عنوانه **إسلام ديمقراطي مدني: الشركاء، والمصادر، والاستراتيجيات**، وصدر عن مؤسسة راند للأبحاث. وتحاول الباحثة مناقشة «قضية الإسلام الراديكالي، وتجلياته، والأسباب الكامنة خلفه، ونزعه ليصبح جزءاً من صراعات سياسية واجتماعية أخرى»<sup>(١٩)</sup>. ويعكس الكتاب كثيراً من معالم التفكير الأمريكي

Francis Fukuyama, *After the Neocons: America at the Crossroads* (London: Profile Books, 2006), (١٦) pp. 114-116.

(١٧) المصدر نفسه، ص ١١٧.

(١٨) إضافة إلى أنّ بنارد تعتبر باحثة بارزة مقربة من الحزب الجمهوري، وإلى أنّ مركز راند الذي تعمل فيه يعمل عن قرب مع القوات المسلحة الأمريكية، ومع باقي الإدارات الحكومية الأمريكية، ثم إن بنارد هي زوجة زلمي خليل زاد، سفير إدارة بوش إلى كل من أفغانستان، والعراق، والأمم المتحدة.

Cheryl Benard, *Civil Democratic Islam: Partners, Resources, and Strategies* (Santa Monica, CA: RAND, National Security Research Division, 2003), p. 47.

التبسيطي، للظاهرة الإسلامية، ولوقف الرأي العام العربي والإسلامي من الولايات المتحدة. فقد كان تركيز الكاتبة على قضايا مثل الحجاب، وتعدد الزوجات، والغناء والموسيقى، وموقف الإسلاميين منها، وهو ما يعكس بوضوح المقولة التي راجت بعد اعتداءات ١١ أيلول/سبتمبر، بأنَّ السبب الرئيسي للتوتر والعداء في العالم الإسلامي ضد الولايات المتحدة، هو الاختلاف في قيم الحياة اليومية، ورفض المتطرفين للحرية، ويعكس أيضاً درجة من الإصرار على رفض رؤية الخلافات السياسية الأساسية، مثل الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين. علاوة على ذلك، تتضح ضحالة المعرفة بمكونات المجتمع الإسلامي، أو حتى بقوى الإسلام السياسي؛ فالكتاب ركز على أحزاب وقوى مثل حزب التحرير، والحركات الصوفية، دون توقف يذكر عند الدولة الإيرانية، أو طروحات القوى الإسلامية الأساسية، مثل الإخوان المسلمين، ودون الالتفات إلى عدم جواز تعميم حالة حزب التحرير، واعتبار فكره ممثلاً لمجمل فكر الجماعات الإسلامية. كذلك فإنَّ الانقسام على الأساس الطائفي مثلاً لم يلق انتباهاً يذكر، رغم أهمية هذا الانقسام في حالات مثل أفغانستان وباكستان ولبنان، آنذاك.

ومثل هذه الأفكار بشأن القيم الأمريكية، أو قيم الحرية الأمريكية، مثلت درجة عالية من التبسيط في اختزال كثير من القضايا السياسية الكبرى. وكان و. باتريك لانج، الضابط السابق في الجيش الأمريكي والخبير بالشؤون العربية، ممن لاحظوا هذا التبسيط. وقد سخر هذا الضابط، الذي استخدمه الجيش الأمريكي لاحقاً لفهم التركيبة الاجتماعية العراقية، من هذا التبسيط بقوله: «يتبنى غالبية الأمريكيين اعتقاداً خاطئاً مفاده أننا عندما نقول «كل الناس متساوون»، نعني أنهم متشابهون. فهم يعتقدون أن الاختلاف في الملابس، وعادات الزواج، والطعام، وما إلى ذلك، هي فقط الخلافات القائمة، أما عدا ذلك، فكل الإنسانية تريد نمط حياة واحداً ومستقبلاً واحداً، وهذا ما يتعزز بتقدم الزمن والعولمة»، و«أنَّ التباينات في العادات والتقاليد ستذوي سريعاً، وتستبدل بثقافة عالمية، كذلك التي توجد في الولايات المتحدة الأمريكية». ويرى لانج أنَّ هذا الإيمان يجعل «الشعب الأمريكي هو الجذر الحقيقي للمشكلة»، ويجعل منه السبب الحقيقي «للفوضى في بلاد الرافدين»<sup>(٢٠)</sup>.

هذا النهج «التبسيطي» في إدارة الحرب وتحديد أهدافها، أشار إليه أيضاً الصحافي الهندي الأصل، فريد زكريا، في نيوزويك، فكتب في الأيام الأولى للحرب في العراق عن البعد الطائفي والقبلي في الحرب، قائلاً إنَّ العراق كان ولعقود، وبالنظر إلى مدى تنوعه العرقي والقومي يعيش «حالة مذهلة نسبياً» من «السلام وحتى التناغم» بين مكوناته، وقال «إنَّ خطأ الإدارة (الأمريكية) الهائل الأول كان احتلال بلد سكانه ٢٥ مليون شخص، باستخدام قوات قوامها ١٤٠ ألفاً فقط»، موضعاً أنَّه «عندما يتزعزع الوضع الأمني، يلجأ الناس إلى جماعاتهم الإثنية، والدينية، والقبلية. ويبدأون الريبة بأي شخص من خارج عشيرتهم. وإذا ما بقيت الحكومة ضعيفة يبدأون الاعتماد على أنفسهم لضمان الأمن،

W. Patrick Lang, Jr., «What Iraq Tells Us about Ourselves,» *Foreign Policy* (February 2007), (٢٠) < [http://www.foreignpolicy.com/story/cms.php?story\\_id=3734](http://www.foreignpolicy.com/story/cms.php?story_id=3734) > .

فينشئون ميليشيات خاصة لهذا الغرض، أو إنهم يعززون ميليشيات أخرى قائمة»، ويقول إن هذا النموذج تكرر في عشرات الأمثلة، بما في ذلك في البلقان، «والآن بالطبع في العراق»<sup>(٢١)</sup>.

لقد أصبح واضحاً في السنوات التي تلت بدء حرب العراق أنّ صناع القرار الأمريكيين كانوا، حتى وقت متأخر على الأقل من الحرب في العراق، غير مدركين للتركيبة الطائفية للمجتمع العراقي، وللبُعد السياسي لتلك التركيبة، وللبُعد هذه التركيبة إقليمياً، بما في ذلك ما يتعلق بدور إيران الإقليمي، وربما الأدق أيضاً، أنّهم لم يكونوا راغبين بشأن ذلك في الاستماع أو الاطلاع على أي طروحات تشير إلى مصاعب قد تؤدي إلى مراجعة قرار الحرب<sup>(٢٢)</sup>. وقد برهن جيف ستين، محرر شؤون الأمن القومي في دورية الكونغرس الأمريكي (CQ)، في عام ٢٠٠٦، على مدى الجهل المطبق لدى العديد من مسؤولي مكافحة الإرهاب الأمريكيين حول التركيبة الطائفية في العراق، ومدلولاتها السياسية، وخصوصاً في ما يتعلق بإيران؛ فقد قابل العديد منهم لسؤالهم سؤالاً محدداً هو: هل تعلم الفرق بين السنة والشيعة؟ ولم يطلب ستين تفاصيل عن جذور التباين في الأفكار والمواقف والمعتقدات، بل سأل أسئلة من نوع «من يعتبر اليوم من السنة ومن من الشيعة؟»، ولخص ستين النتيجة التي خرج بها، في مقال في صحيفة نيويورك تايمز، بقوله إن «معظم المسؤولين الأمريكيين الذين قابلتهم ليس لديهم أدنى فكرة». وكان من ضمن من قابلهم مسؤولون في الاستخبارات وأجهزة الأمن، وأعضاء كونغرس لديهم دور مباشر وحيوي في متابعة وكالات الاستخبارات، ومن ضمن هؤلاء على سبيل المثال، ويللي هولون، مسؤول فرع الأمن القومي في مكتب التحقيقات الفدرالية (إف بي آي)، الذي اتضح أنّه يعتقد أنّ إيران دولة سنيّة، وأنّه غير متأكد مما إذا كان تنظيم «القاعدة» سنيّاً حقاً. وتساءل ستين «كيف يمكن أن يؤدي عملهم إذا لم يكونوا يعرفون الأساسيات؟»، ويعلق بالقول: «الكثير جداً من مسؤولي الحرب على الإرهاب لا يكتثرون بأن يتعلموا الكثير، حتى وإن كان الأمر يتعلق بالعدو الذي يقاثلونه»<sup>(٢٣)</sup>.

## ٢ - التركيبة القبلية (سياسات الأعيان)

من البديهي أن يطلب مخططو الحرب الأمريكية مشورة الباحثين المختصين بدراسات الشرق الأوسط، وأن يسعى بعض هؤلاء المخططين إلى التعرف، ولو بقدر محدود، على

(٢١) المصدر نفسه.

(٢٢) في الواقع أجد أنّه من الجدير أن أذكر هنا قصة حديث دار بيني وبين صديق بريطاني، كان يعمل باحثاً في أحد المراكز الأوروبية الشهيرة، في لندن. فقد أخبرني هذا الباحث في العام ٢٠٠٢، عن إحباطه بشأن طريقة الولايات المتحدة الأمريكية في التحضير لحرب العراق، فرغم تكلفه وتكليف باحثين بريطانيين وأمريكيين تقييم الموقف في العراق، وتقييم متطلبات الحرب، فإنّ التقييمات والنصائح التي كانوا يقدمونها كان يتم تجاهلها، ووضعها جانباً دون الاطلاع عليها، من قبل مسؤولي البيت الأبيض ووزارة الدفاع الأمريكية، خصوصاً عندما كانوا يحذرون من النتائج السياسية والثقافية الخطرة لشن الحرب «على العلاقات بين الغرب والشرق» - على حد تعبيره، ومن عدم جاهزية الجندي الأمريكي، وقد انتهى الأمر بهذا الصديق إلى الاستقالة من عمله، بسبب هذا الوضع.

(٢٣) Jeff Stein, «Can You Tell a Sunni from a Shiite?», *New York Times*, 17/10/2006.

تاريخ المنطقة وشعوبها. ومن هنا، فإنّ هناك دراسات وكتباً رئيسية من شبه المؤكد أن يرجعوا إليها، ويمكن أن تقدم تصوراً واضحاً عن التركيبة الاجتماعية العراقية، بما في ذلك البنية القبلية.

أحد الأفكار، أو إحدى النظريات التوضيحية، التي تطورت وشاعت إلى حد كبير جداً في مناهج الدراسات الشرق الأوسطية في الغرب، تتعلق بأهمية القيادات المحلية في المجتمعات العربية، والمعروفة باسم نظرية «سياسة الأعيان»، المستمدة من دراسة المجتمع العربي، بدءاً من العصر العثماني، عندما كان يتم تقسيم مختلف المناطق في الإمبراطورية العثمانية إلى ولايات وسناجق. وكانت سياسة الحكم والإدارة تقوم إلى حد كبير على ما سمّاه ألبرت حوراني، «سياسة الأعيان»، وهذا المصطلح أصبح شائعاً جداً في دراسات الشرق الأوسط، في الغرب، بما في ذلك الدراسات التي تناولت مرحلة ما بعد سقوط الدولة العثمانية، وفترات الحكم الاستعماري، وخصوصاً في مناطق الانتداب البريطاني، وحتى الوقت الراهن<sup>(٢٤)</sup>. وهو يشير إلى «عائلات كبرى» كانت تعيش في مدن الإمبراطورية العثمانية، «التي يمكن أن تلعب دوراً سياسياً باعتبارها وسيطاً بين الحكومة والشعب، كما أنّها – بحدود معينة – تقوم بدور القيادة للسكان في المناطق المدنية»<sup>(٢٥)</sup>. وهذه المجموعات تختلف من مدينة إلى أخرى تبعاً للظروف، ولكن كان هناك مجموعات أساسية للأعيان، في معظم المناطق، وهذه المجموعات تواصل أثرها حتى يومنا المعاصر – كما يشير كثير من الدراسات:

– مجموعات «علماء المسلمين»، الذين يعتبر دورهم فاعلاً، وكان هؤلاء في زمن الدولة العثمانية «هم فقط من يملك إسباغ الشرعية على سلوكها (الدولة العثمانية)»<sup>(٢٦)</sup>. وكانوا يحتلون مناصب القضاء والإفتاء وغيرها من المناصب ذات الطابع الديني. وتكتسب مناصبهم أهميتها من مصدرين أساسيين، أولهما أنّ هذه المناصب أصبحت حقاً عائلياً مكتسباً يتم توريثه، وثانيهما، الإمكانيات المالية والمادية المتحققة من خلال مؤسسات وممتلكات الوقف الإسلامي.

– مجموعات الوجهاء والأمراء والآغوات، الذين يستندون في قوتهم إلى تقاليد

Albert Hourani, Philip S. Khoury and Mary C. Wilson, eds., *The Modern Middle East: A Reader* (٢٤) (Berkeley, CA: University of California Press, 1993); Albert Hourani, «Ottoman Reform and the Politics of Notables.» paper presented at: *Beginnings of Modernization in the Middle East the Nineteenth Century*, edited by William R. Polk and Richard L. Chambers, Publications of the Center for Middle Eastern Studies; no. 1 (Chicago, IL: University of Chicago Press, [1968]), pp. 83-109, and Yezid Sayigh, *Armed Struggle and the Search for State: The Palestinian National Movement, 1949-1993* (Oxford: Clarendon Press; New York: Oxford University Press, 1997), p. 5.

Hourani, «Ottoman Reform and the Politics of Notables.» p. 89. (٢٥)

A. H. Hourani, «Introduction», paper presented at: *The Islamic*, ٩٠، ٩٣، و١٠٢، المصدر نفسه، ص (٢٦) *City: A Colloquium Held at All Souls College, June 28-July 2, 1965*, edited by A. H. Hourani and S. M. Stern (Oxford, Cassirer; [Philadelphia]: University of Pennsylvania Press, 1970), p. 18.

سياسية، أو إلى دور معين ومنصب عسكري معين، بصفتهم جزءاً من الجيش التركي وولاية في مناطقهم، أو من خلال دورهم الاقتصادي الإداري، باعتبارهم جباة الضرائب لصالح الحكومة المركزية، ولمتابعة عمليات التجنيد الإلزامي لصالح الجيش العثماني<sup>(٢٧)</sup>.

ومثل هذه المجموعات، كما توضح دراسات كثيرة، تحاول دائماً الموازنة بين السلطة والشعب، ولا تعتمد على أحدهما كلياً ولا تنحاز إلى أحدهما كلياً، وتحاول الحفاظ على درجة من الاستقلال، بحيث تبقى ضرورية كوسيط مقبول من الطرفين، دون أن تبدو كما لو أصبحت كلياً جزءاً من أحدهما. ومن أهم أدوار هذه الجماعات الاعتراف بشرعية الحكومة المركزية، والقيام بمهمات إدارية معينة نيابة عنها، في المناطق التي تسكنها. وتتولى في الوقت ذاته تمثيل الناس لدى السلطة، وتوصل بعض مطالبهم، وقد تقوم أحياناً بتعبئتهم، سواء لدعم ومؤازرة الحكومة المركزية أو لمعارضتها<sup>(٢٨)</sup>.

وفي دراسته «تكوين المدينة المسلمة»، يوضح إس. إم شتين، كيف يلعب الأعيان دوراً حاسماً أحياناً في حال تغير القوة المسيطرة. ويقول إنه عند بدء تراجع سلطة الحكومة (أي حدوث فراغ في السلطة)، يتقدم الأعيان ويتولون تسيير شؤون المدينة، ويصبحون بحكم الأمر الواقع من يدير المدن ويحكمها، حتى تظهر قوة حاكمة تتمكن من ممارسة السلطة مجدداً<sup>(٢٩)</sup>. وفي دراسة أخرى، يشير روجر أوين، كيف أن الدول «الاستعمارية» في الشرق الأوسط حاولت الحفاظ على دور جماعات الأعيان هؤلاء، بهدف الاستفادة منهم «وتكوين تحالف، ضمني أو صريح، معهم»<sup>(٣٠)</sup>. وواقع الأمر أن القبائل البدوية، وإلى حد ما، رجال الدين، حافظوا على دورهم بدرجة ما خلال القرن العشرين، في الكثير من الدول العربية الناشئة، وكثير من القادة القبليين ورجال الدين أصبحوا جزءاً من عناصر إكساب الحكومات الناشئة شرعيتها، أو جزءاً من عمليات التعبئة والمعارضة ضدها.

وقد أسقط المسؤولون الأمريكيون إلى حد كبير مثل هؤلاء الأعيان من حساباتهم، وأهملوا التركيبة القبلية، ودور العائلات الدينية، والقيادات التقليدية، ربما باستثناء جزء يسير ممن كان لهم دور سياسي ظاهر في معارضة النظام العراقي السابق. هذا رغم تحذيرات بعض الكتاب والخبراء، كتحذيرات فريد زكريا السالفة الذكر، وغيرها. وتكشف خطوة حل الجيش العراقي السابق، وإنهاء خدمات ضباطه، التي جعلت كثيراً منهم يتحولون إلى جزء أساسي من المقاومة والتمرد؛ الجهل الشديد لمن وقف خلف هذه الخطوة بالبعد الاجتماعي لها، وعدم القدرة على توقع الدور الذي قد يلعبه الضباط السابقون في الحشد الاجتماعي. هذا فضلاً على عدم إدراك الحاجة إلى ضمان تقبل القيادات الاجتماعية

Hourani, «Ottoman Reform and the Politics of Notables». (٢٧)

*The Islamic City: A Colloquium Held at All Souls College, June 28-July 2, 1965*, p. 18. (٢٨)

(٢٩) المصدر نفسه.

Roger Owen, *State, Power, and Politics in the Making of the Modern Middle East*, 2<sup>nd</sup> ed. (London; New York: Routledge, 2000), p. 15. (٣٠)

القبلية والدينية للسلطة الجديدة. في المقابل استغل تنظيم «القاعدة» هذا الخطأ الأمريكي، وسعى إلى تشكيل تحالفات مع الضباط والجنود السابقين ومع العشائر والقبائل.

ولم يكن دور الأعيان، وتحديدًا الزعامات القبلية، غائباً تماماً عن أذهان فريق داخل الإدارة الأمريكية، ولكن النخبة التي سيطرت على الشأن العراقي داخل الإدارة هي التي أهملت هذا الدور، الأمر الذي أدى إلى فشل وتخطيط في التعامل مع كثير من القادة التقليديين الدينيين والقبليين، ومن هؤلاء القادة، على سبيل المثال لا الحصر، مقتدى الصدر، الزعيم الشيعي الشاب، الذي اكتسب مكانته السياسية، جزئياً، من انتسابه إلى عائلة دينية ذات مكانة تقليدية مرموقة، ثم عزز هذه المكانة جزئياً أيضاً برفع لواء المقاومة في وجه الاحتلال. ولعل سلوكه المتناقض من حين إلى آخر، وإطلاقه تصريحات مسالمة أحياناً إزاء الأمريكيين، بينما يرمي حيناً آخر «جيش المهدي» الذي يعلن مقاومة الأمريكيين وحلفائهم الدوليين والمحليين، ثم يعود ويعلن حل هذا الجيش، كل هذا يمكن تفسيره بسهولة وفق نظرية «سياسة الأعيان» السالفة وحسابات السلطة.

ويكشف الدبلوماسي الأمريكي زلماي خليل زاد كيف حدث تجاهل التركيبة الاجتماعية القبلية العراقية، فيقول إنّه كان من المقرر في ٦ أيار/مايو ٢٠٠٣ أن يعلن الرئيس بوش أن زلماي خليل زاد سيسافر إلى العراق للإشراف على الدعوة إلى مؤتمر قبلي موسع، شبيه بالاجتماع الذي سبق أن أشرف على تنظيمه في أفغانستان، والمعروف باسم «الليوجرغا»، وبحيث يقوم المجلس ببحث وتسريع عملية تأسيس حكومة عراقية مؤقتة. ولكن بدل قيام بوش بالإعلان المقرر، قام بإعلان تعيين بول بريمر رئيساً لسلطة التحالف المؤقتة<sup>(٣١)</sup>. وبريمر كان سفيراً أمريكياً سابقاً إلى هولندا، وخبرته محدودة نسبياً في شؤون المجتمعات العربية والمسلمة. ويوضح زاد رؤيته إلى قرار بوش تعيين بريمر بأن الأمريكيين قرروا أن «يحكموا (العراق) بأنفسهم»، ويؤكد أنّ خطوة تعيين بريمر وإلغاء فكرة المجلس القبلي تمت وسط حيرة وزير الخارجية الأمريكي آنذاك كولن باول، ودون استشارته أو استشارة مستشارة الأمن القومي، في ذلك الوقت، كوندوليزا رايس، وكان القرار مفاجئاً لكليهما، ولزاد أيضاً<sup>(٣٢)</sup>.

بعد النتائج الكارثية لإهمال التركيبة القبلية والعائلية العراقية، بدأ الاهتمام بتحليل هذه التركيبة. وعلى سبيل المثال، نشر معهد بروكنغز، في تموز/يوليو ٢٠٠٣ مقالاً على موقعه على الإنترنت، تضمن مؤشراً عالياً من حيث إدراك خصائص الدور السياسي للقبائل، ولكن لا توجد مؤشرات على أن مثل هذه الدراسات أثرت سريعاً في القرار السياسي للمسؤولين عن الشأن العراقي. وقد خرجت هذه المقالة بنتائج، منها أنّ «القبائل معتادة على العمل على نحو شبه مستقل، واتباع أحكام قانونية مختلفة عن باقي البلاد». وقالت المقالة إنّ «إدارة (القبائل) وجعلها في ذات اتجاه سياسات الحكومة المركزية سيكون تحدياً مهماً أمام

Roger Cohen, «The MacArthur Lunch,» *New York Times*, 27/8/2007.

(٣١)

(٣٢) المصدر نفسه.

السلطة الانتقالية (آنذاك)، والحكومة الديمقراطية العراقية الجديدة»<sup>(٢٣)</sup>.

ويلخص مراسل صحيفة **لوس أنجلوس تايمز**، في العراق، توني بيرري، تعامل الأمريكيين مع القبائل العراقية، بقوله إنه «عندما يتم كتابة تاريخ التدخل الأمريكي في العراق، فإن أحد المجالات التي ستحظى باهتمام، سيكون علاقة الأمريكيين بشيوخ الأنبار، وهي المحافظة التي ولد فيها التمرد السنّي. حيث حاول الجيش الأمريكي في البداية، تجاهلهم، باعتبارهم شيئاً ثقافياً ينتمي إلى زمن غابر، وهو قرار ندم الجيش عليه سريعاً، حيث كان هذا القرار الحاضنة للتمرد». ويكشف بيرري كيف أنّ إحدى القضايا التي أثارت حيرة الجيش الأمريكي، لاحقاً، عندما تم التراجع عن قرار إهمال القادة القبليين، هي الوزن النسبي لكل شيخ من الشيوخ، ومدى سلطته ونفوذه<sup>(٢٤)</sup>. والواقع أنّه تم في وقت لاحق لوقوع الأزمة في العراق، البدء بدراسات بواسطة جنود أمريكيين وخبراء، لفهم التركيبة والخريطة القبلية والعشائرية في العراق. ومن الأمثلة على هذه الدراسات تلك التي أجريت لمصلحة وزارة الدفاع الأمريكية، وتكونت من ٣٠٠ صفحة، عنوانها «دراسة العراق القبلي: محافظة الأنبار»، وأعدّها اختصاصيون في مكافحة الإرهاب وأكاديميون. وتتضمن الدراسة ما يمكن اعتباره نوعاً من الاستفادة – المتأخرة – من دراسات «سياسة الأعيان» السالفة الذكر، حيث أوضحت الدراسة أنّ في أثناء عهد نظام صدام حسين استمر الدور السياسي والاجتماعي لقادة القبائل، وكيف أنّ الحرب الراهنة تهدد مصالحهم تلك<sup>(٢٥)</sup>. كذلك تضمنت الدراسة نصائح للجنود بشأن قواعد للسلوك، على شكل دليل عمل، تحت عنوان «كيف تعمل مع رجال القبائل»، وكانت العبارة الأولى في هذه النصائح، أنّ «(احترام) هي الكلمة العربية<sup>(٢٦)</sup> التي تشكل مفتاح العمل مع رجال القبائل في أي مكان بالعالم»<sup>(٢٧)</sup>.

## ثالثاً: السياسات الأمريكية الطائفية والقبلية في المرحلة الثانية من الحرب

كما توضح الصفحات السابقة، فإنّ فشل السياسات الأمريكية في المرحلة الأولى للحرب، والناجم إلى حد كبير عن جهل أو تجاهل في أوساط عناصر رئيسية في صناعة القرار الأمريكي، لكثير من العوامل السياسية والاجتماعية والثقافية للحالة العراقية، قد أدى إلى مراجعات لأسس إدارة الصراع في العراق، ولكن الواضح أنّه كان هناك، ولمراحل ليست قصيرة نسبياً، سيناريوهات متعددة وخلافات يتداولها صانعو القرار الأمريكيون،

Amatzia Baram, «The Iraqi Tribes and the Post-Saddam System.» Brookings Institution (8 July (٢٣) 2003), < [http://http://www.brookings.edu/papers/2003/0708iraq\\_baram.aspx](http://http://www.brookings.edu/papers/2003/0708iraq_baram.aspx) > .

Tony Perry, «Iraq's Modern-Day Lawrence of Arabia.» *Los Angeles Times*, 11/12/2008. (٢٤)

Walter Pincus, «A Potentially Winning Tactic: With a Warning.» *Washington Post*, 27/8/2007. (٢٥)

«RESPECT (Ihtiram in Arabic) is the key.» كان النص بالإنكليزية يبدأ كما يلي: (٢٦)

W. Patrick Lang, «How to Work with Tribesmen.» < [http://turcopolier.typepad.com/sic\\_sempet\\_tyranis/files/how\\_to\\_work\\_with\\_tribesmen.pdf](http://turcopolier.typepad.com/sic_sempet_tyranis/files/how_to_work_with_tribesmen.pdf) > . (٢٧)

ويقدمها باحثون وخبراء قرييون منهم. ومن أشهر السيناريوهات التي طرحت فكرة «حل الـ ٨٠ مقابل ٢٠»، التي تم تداولها في أروقة وزارة الخارجية الأمريكية في نهايات العام ٢٠٠٦. وجاءت الفكرة تعبيراً عن درجة من اليأس من إمكانية التصالح مع قوى التمرد السنّي العراقية، لذلك تم اقتراح إعطاء أولوية للعلاقة مع الشيعة والأكراد باعتبارهم يشكلون ٨٠ بالمئة من العراقيين الـ ٢٦ مليوناً، مع ترك مهمة إجراء المصالحة في العراق للعراقيين أنفسهم، تحت القيادة الكردية - الشيعية. على أنّ هذه الفكرة تمت معارضتها بشدة من قبل السفير الأمريكي في العراق، آنذاك، زلماي خليل زاد، ومن قبل القادة العسكريين الأمريكيين في العراق، الذين أصروا على استمرار جهودهم للتفاهم مع قوى التمرد السنّي. وقد كانت فكرة فيليب زيلوك، مستشار وزارة الخارجية الأمريكية آنذاك، الذي اقترح هذا الحل، هي بحسب ما كشفت مصادر للصحافة وقتها، أنّ الولايات المتحدة قد «هددت فرصها بالنجاح بتبنيها أهدافاً بعيدة جداً»<sup>(٣٨)</sup>.

ويبدو أنّ التطورات على الأرض هي التي حددت مسار الأحداث، حيث يبدو أنّ العراقيين أنفسهم وقيادات الجيش الأمريكي هي التي تولت لاحقاً توجيه الدفة. والواقع أنّ الحل الذي تم تبنيه، أقرب إلى أن يكون حل الـ ٢٠ بالمئة، كما تم وصفه من بعض المراقبين، لأنّه اعتمد على التفاهم مع القيادات السنّيّة مباشرة بدل انتظار الحكومة التي تسيطر عليها أغلبية الـ ٨٠ بالمئة لتقوم بتحقيق المصالحة والاستقرار<sup>(٣٩)</sup>. وهذا الحل تم البدء بتبنيه مطلع العام ٢٠٠٧، من خلال تأسيس ما عرف باسم «مجالس الصحوة».

ويعود تأسيس هذه المجالس إلى عوامل عدة، منها ملاحظة الجيش الأمريكي للتباين والتنافس الناشئين بين قبائل عربية سنّيّة رئيسية، وتنظيم «القاعدة» الناشط في العراق. وقد تولدت هذه الحالة لأسباب، منها الفهم المتطرف للإسلام الذي تبنته «القاعدة» وحاولت فرضه على العراقيين حيثما استطاعت، إضافة إلى مخططات «القاعدة» لحكم العراق وإقامة دولة إسلامية تحت سيطرتها ووفق رؤيتها، وهو ما أدى إلى تنامي العداء والتنافس بين القبائل السنّيّة والقاعدة، وسمح بتطور ظروف مناسبة لتحالف «القبائل» مع قوات التحالف الدولية، وهو ما قاد إلى تأسيس «مجالس الصحوة»، التي تكونت من رجال القبائل ومن أعضاء سابقين في المقاومة وفصائل التمرد<sup>(٤٠)</sup>.

على صعيد آخر، فإنّ التحرك الذي ساهم في تراجع العنف الطائفي في العام ٢٠٠٨، يتمثل أيضاً في عوامل داخلية إلى حد كبير، إذ إنّ مبادرة حكومة نوري المالكي لمواجهة مليشيات جيش المهدي، التابعة للتيار الصدري، تم تفسيرها استناداً إلى عدد من الأسباب المحتملة، أبرزها التنافس بين القوى الشيعية ذاتها. كذلك موقف البلدان العربية المجاورة للعراق من الحكومة العراقية وعدم التعاون معها رداً على سياساتها التي لا توفر الحماية أو

«U.S. Considers Ending Outreach to Insurgents,» *Washington Post*, 1/12/2006. (٣٨)

Charles Krauthammer, «The 20 Percent Solution,» *Washington Post*, 20/7/2007. (٣٩)

Perry, «Iraq's Modern-Day Lawrence of Arabia». (٤٠)

الحقوق للعرب السنّة. يضاف إلى ذلك، بالطبع، الضغط الأمريكي على الحكومة العراقية للحد من عنف الميليشيات الشيعية.

### خلاصة: من «تحويل الصراع» إلى «إدارة الصراع»

كما يتضح من مسيرة الحرب في العراق، فقد بدأ الطرف الأمريكي الحرب متبنياً أهدافاً كبيرة تتعلق بإزاحة النظام الحاكم، وتحويل العراق ليكون نموذجاً يجسد الرؤية الأمريكية لما «يجب» أن يكون عليه الشرق الأوسط. وهو، كما تم إيضاحه سالفاً، ما يمكن تسميته بموجب آليات حل الصراعات نوعاً من «تحويل الصراع»، الذي هو أكثر أنواع إدارة الصراع طموحاً، القائم على إعادة تشكيل «العدو» أو «أطراف الصراع» ثقافياً واجتماعياً ونفسياً وسياسياً. ولكن مع الصعوبات التي واجهت الأمريكيين في العراق، لأسباب عديدة تتعلق بالتخطيط العسكري، وبعدم فهم التركيبة السياسية – الاجتماعية. تم التراجع كثيراً في مستوى الطموحات، إلى الدرجة التي يمكن معها القول إن الأمريكيين تحولوا من السعي إلى «تحويل الصراع» إلى مستوى متواضع من «إدارة الصراع»، واحتوائه، وتحديداً إلى التعريف الكلاسيكي لإدارة الصراع القائم على «التركيز على المظاهر المسلحة للصراع: إنهاء القتال، والحد من انتشار الصراع، واحتوائه»<sup>(٤١)</sup>. واختفت عملياً الادعاءات بشأن السعي إلى تحويل العراق إلى نموذج ديمقراطي يتبنى قيماً جديدة. بل إن الولايات المتحدة أظهرت مرونة في التعامل مع الدور الإيراني في العراق، فأجرت مباحثات متعددة مع الإيرانيين لمناقشة سبل العمل المشترك للتهديّة في العراق. وباستخدام كلمات فريد زكريا، تحولت الاستراتيجية الأمريكية في العراق من «استراتيجية نصر»، إلى «استراتيجية خروج»<sup>(٤٢)</sup>.

على العكس من الأهداف الأمريكية المزعومة حول الديمقراطية قبيل الحرب، فإن ما آلت إليه نتيجة الحرب، مع نهايات عهد إدارة الرئيس جورج بوش، كان تعزيز الهويات والانقسامات الطائفية، والإثنية، والقبلية في العراق، وهو ما يتعارض بوضوح مع فكرة الدولة الليبرالية الديمقراطية، التي بشرت بها الإدارة الأمريكية ومنظروها. ومن الضروري ملاحظة أنّ الطائفية والنظام الأبوي في المجتمع والسلطة، كانا قد تراجعا نسبياً في البلدان العربية في منتصف القرن الماضي، عندما نمت الأحزاب العلمانية العربية في هذه البلدان، وعندما شرعت عدة أنظمة عربية في عمليات تحديث واسعة. والواقع أنّ ما نشهده حالياً في العراق وفي بلدان عربية أخرى، يتضمن تداعيات قد يكون لها آثارها الوخيمة في المستقبل، إن لم يتم احتوائها، تشمل العودة في البلدان العربية إلى عصر ما «قبل الدولة» الحديثة حيث الانتماء إلى القبيلة والطائفة والمنطقة الجغرافية والمذهب له الأولوية على فكرة المواطنة والدولة الموحدة، وهو ما يزعزع بالتالي أفكار الوحدة والتكامل في السياق العربي الأوسع ■

Peter Wallensteen, *Understanding Conflict Resolution: War, Peace and the Global System* (London; (٤١) Thousand Oaks, CA: Sage Publications, 2002), p. 53.

Fareed Zakaria, «Iraqification: A Losing Strategy,» *Newsweek* (10 November 2003). (٤٢)